ابن حمادوش، طبيب جزائري من القرن الثامن عشر

Ibn Hammadouche, an algerian doctor from the eighteenth century

شارف محمد[1]

Charef Mohammed

جامعة أدرار – الجزائر

moh.charef@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام:2020/08/25– تاريخ القبول:2020/09/05– تاريخ النشر: 2020/09/19

ملخص:

سنحاول في هذا البحث، دراسة شخصية من الشخصيات التي لعبت دورا هاما في الحياة الثقافية بالجزائر في القرن 12 الهجري (18 الميلادي)، وهو عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، صاحب رحلة "لسان المقال"، والتي سجل فيها ملاحظاته في تطوان وفاس ومكناس بالمغرب الأقصى، كما نجده ميلا بطبعه إلى ما يسمى بالعلوم الرياضية والطبية، فهو صيدلي، وطبيب، وحساب، وفلكي، وفرضي، ومنطقي، وقد ألف في هذه الفنون عدداً من الرّسائل والكتب، ككتابه المفقود "الجوهر المكنون في بحر القانون"، ويعني بالقانون كتاب ابن سينا، وهو في أربعة أجزاء، لم يتبقّ منها سوى الجزء الرّابع والأخير، وهو معجمه "كشف الرموز في بيان الأعشاب"، والذي يسير فيه على منهج الأقدمين كابن سينا وابن البيطار، والأنطاكي، وهو مرتّب على حروف المعجم، وقد ترجمه لوسيان ليكليرك سنة 1874، أي قبل كتابه، "تاريخ الطب العربي" بسنتين، كما ترجمه ودرس مضمونه غابريال كولن، في رسالته للدكتوراه من جامعة الجزائر، عام 1905، بعنوان، (Abderrezzaq el-jezairi ; un Médecin Arabe du XII Siècle de l'Algerie)،

الكلمات المفتاحية: حمادوش ؛ رحلة؛ فرضي؛ طبيب ؛ كشف.

Ibn Hammadouche, an algerian doctor from the eighteenth century

Abstract :

In this research, we will try to study one of the personalities who played an important role in the cultural life in Algeria in the 12th century AH (18 AD), and that is Abd al-Razzaq Ibn Hammadoush al-Jazaery, the owner of the "Lisan El Maqal" trip, in which he recorded his observations in Tetouan, Fez and Meknes in the Far Maghreb. We also find him inclined by his nature to the so-called mathematical and medical sciences, as he is a pharmacist, physician, arithmetic, astronomer, hypothesis, and logician. It is in four parts, leaving only the fourth and final part, which is his dictionary "Revealing Symbols in Explaining Herbs, which follows the approach of the ancients such as Ibn Sina, Ibn Al-Bitar, and Al-Antaki, and it is arranged on the letters of the dictionary, Lucien Leclerc translated it in 1874, that is, two years before his book, The History of Arab Medicine, as was translated and studied by Gabriel Colin, in his doctoral thesis from the University of Algiers, in 1905, entitled, (Abderrezzaq el-jezairi; un Médecin Arabe du XII Siècle de l'Algerie),

Key word : Hamadouche ; owner; medical; hypothesis; kachef.

[1] – المؤلف المرسل: شارف محمد ، الإيميل: moh.charef@univ-adrar.edu.dz

مقدمة

ما من شك في أن الجزائر قد عرفت العديد من الأعلام في الفترة العثمانية، والتي امتدت ثلاثة قرون (1518- 1830)، وقد حاول جميعهم بعث الثقافة في هذا القطر، الذي عرف صراعا بين المسلمين تحت ظل الخلافة العثمانية، وبين الإسبان النصارى، ونحن لا يهمنا هنا موقف الحكام من العلماء، ذلك أن هؤلاء الحكام كانوا منهمكين في الصراعات الداخلية والخارجية، وهذا ما جعل العلماء يجتهدون كل في ميدانه في تنوير الشعب من خلال الدروس التي تلقى في المساجد، أو في غيرها من المدارس، وقد جلب الحكام الأتراك معهم المذهب الحنفي، فكان في دار السلطنة (مدينة الجزائر) مفتيان أحدهما مالكي والآخر حنفي، والأمر نفسه فيما يتعلق بالقضاء.

وقد اهتم أغلب علماء هذه الحقبة (كغيرها من الحقب) بالعلوم الشرعية، من تفسير وقراءات وحديث وإجازة وعقيدة، وما يستتبع ذلك من علوم اللغة والنحو والبلاغة، وهذا ما نجده في مؤلفات أحمد بن ساسي البوني، وحسين العنابي، والفكون، والمقري، وابن مريم، وأبي راس، الورثيلاني، وغيرهم. إضافة إلى الاهتمام الملفت للنظر بالتصوف، وهو ما نجده في البستان لابن مريم، ورحلة الورثيلاني، على سبيل المثال لا الحصر، ذلك أنه ظهرت عدة مدارس في العلوم المذكورة لعل أشهرها مدرسة تلمسان، والتي تخرج منها علماء ينتمون لعائلات مشهورة كالمقري والعقباني وابن مرزوق، إضافة إلى مدرسة قسنطينة، وبجاية.

وعلى الرغم من أن علماء الجزائر والمغرب العربي بصفة عامة كانوا بعيدين كل البعد عن العلوم العقلية، أو علوم النصارى كما كان يطلق عليها، والتي اعتبروها غير ضرورية، ولا منفعة في تعلمها، ونعني بها الهندسة والمنطق والفلك والطب والصيدلة، وما إلى ذلك من العلوم التي تعتمد التجريب، فقد ظهر علماء كسروا تلك الحواجز، وبرعوا في العلوم المذكورة، ومن هؤلاء نجد "عبد الرزاق ابن حمادوش"، هذا الأخير الذي خلق الاستثناء ووضع بعض التآليف في الفلك والطب والهندسة والروزنامة وما إلى ذلك.

من هنا جاءت هذه الدراسة التي تحاول البحث في الجهود العلمية لدى ابن حمادوش، ودقة ملاحظته، وولعه بالتجريب، فضلا عن مطالعاته في كتب النصارى، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، واهتمامه بالأعشاب وأسمائها ومنافعها، انطلاقا من التجربة الشخصية، أو من خلال اطلاعه على كتب الطب المعروفة كابن سينا والأنطاكي وابن البيطار، وهو ما جعله يؤلف كتابا سماة "الجوهر المكنون في بحر القانون"، وهو يشير إلى كتاب "القانون في الطب لابن سينا"، وسنفصل في الموضوع وفق الخطة التالية:

ترجمة ابن حمادوش

مؤلفاته.

بعض ملاحظاته العلمية.

بعض تجاربه العلمية.

تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج.

معجم كشف الرموز في بيان الأعشاب.

خاتمة.

ترجمة ابن حمادوش[1]:

ولد عبد الرزاق ابن محمد بن محمد بن حمادوش (بالتشديد أو بالتخفيف)، أو أحمدوش، الجزائري في شهر رجب عام 1107هـ الموافق 8 أغسطس 1695م، في مدينة الجزائر، من عائلة متوسطة الحال من طبقة الحرفيين، ذلك أنه ذكر في رحلته بعض الحرف كالدباغة والحرارة والصفارة والتجارة، متصلة به أو بعائلته، يقول في عقد زواجه الأول: « الحمد لله، تزوج على بركة الله وتوفيقه المكرم الشاب عبد الرزاق بن الحاج محمد بن حمادوش مخطوبته فاطمة بنت عمه، المكرم الحاج أحمد الدباغ»[2]. ويقول في عقد زواجه الثاني: «أنكحها إياه بما سمى فيه شقيقها المكرم السيد أحمد، أمين جماعة الصفارين». أما عن الحرارة والتي تشير إلى الاشتغال بالحرير، فقد وردت في عقد زواج

أخته، التي اقترنت بأمين الحرارين، ومن خلال رحلته نلمح اشتغاله بالتجارة، رغم أنه لم يستفد منها كثيرا، كما أنه لم يتول أي وظيفة حكومية يمكن أن تضمن له عيشا رغيدا كما كان يفعل غيره من العلماء.

أما عن نشأته وتكوينه العلمي الأول، فليس هناك – من خلال الوثائق المتوفرة – شيء يذكر، ومع ذلك فليس مستبعدا أن يكون له شيوخ في العلوم المتصلة بالعلم الشرعي، وهي العلوم التي يتعلمها الصبية في غالب الأحيان، كما أنه ربما يكون قد اشتغل مع والده بالتجارة، التي يبدو أنه قد سافر لأجلها عدة مرات فيما بعد، ومع ذلك فقد بقي يعاني من العوز والفقر، مما خلق له العديد من المشاكل العائلية، أما بالنسبة للجانب التحصيلي، فقد تتلمذ ابن حمادوش في مدينة الجزائر – على ما يبدو – على محمد بن ميمون "صاحب التحفة المرضية"، هذا الأخير الذي كان قاضيا للمواريث، وهو الذي أعلن زواج الباشا إبراهيم رغم أنه خارج اختصاصه [3]، وما يهمنا هنا هو أن ابن حمادوش قد تدارس مع شيخه ابن ميمون بعض المسائل والكتب الأدبية والتاريخية والعلمية.

يقول مثلا: «وفي يوم الاثنين ثامن ربيع الأول موافق تاسع أبريل بعث لي شيخنا ابن ميمون، بعد العصر، تذاكرنا في داره إلى غروب الشمس، مسائل علمية من أدب وغيره»[4]، ويقول في موضع آخر – في جمادى الأولى من عام 1158 – : «أول يوم منه ابتدأت مع شيخنا ابن ميمون، في داره، بعد سرد الكردبوس سرد عيان مسائل ابن حجة في الأدب، وكان يوم الاثنين الموافق عشرين ماية (ماي). وفي يوم الأحد تاسع عشر جمادى الأخيرة موافق سابع يوليه، ابتدأت على شيخنا ابن ميمون سرد قصيدة مالك بن المرحل، نظم فصيح ثعلب في اللغة، وهي من بحر الرجز، وعدد أبياتها ألف وثلاثمائة ونيف ... وفي يوم الأربعاء عرض علي الشيخ الاتقان في علوم القرآن»[5].

وللوهلة الأولى يظهر للمطالع لرحلة ابن حمادوش اهتمامه بالعلوم العقلية، أو علوم النصارى، خلافا لما كان عليه سائر علماء ذلك الوقت، كالمنطق والحساب والطب والفلك، وما إلى ذلك، رغم أنه تدارس مع ابن ميمون كتبا في الأدب والتاريخ والفقه إضافة إلى صحيح البخاري، هذا الأخير الذي يعتبر عمدة كتب الحديث في المغرب العربي قراءة وختما، فابن حمادوش لم يحدث قطيعة نهائية مع ما اعتاد العلماء قراءته، لكنه شذ عليهم باهتمامه العلمي، وابتعاده عن الإغراق في التصوف، «فقد درس القلصادي وشرح السنوسي على الحباك والقانون والنجاح لابن سينا، وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا، ومقالات إقليدس، وكتاب تاريخ الدول للملطي في أخبار العلماء والأطباء، وقد نقل من هذا الكتاب في الرحلة، وأعجب بصاحبه، ثم كتاب روضة الأزهار للجادري وشروحها، وكتاب السطي على ذوات الأسماء والمنفصلات، وطالع تأليفا في علم البونية لعبد الرحمن الفاسي، وكتاب الطلاسم لابن البنا»[6].

كان ابن حمادوش كثير الترحال، فقد زار كلا من تونس ومصر والحجاز، وأخذ عن بعض الشيوخ هناك، وذلك عبر حجاته الثلاث، الأولى كانت سنة 1125هـ/1713م، والثانية سنة 1130هـ/1718م، أما الثالثة والأخيرة فسنة 1161هـ/1748م، ولعل أبرز شيوخه هناك محمد زيتونة المنستيري[7]، أما في المغرب، التي زارها مرتين على الأقل، سنة 1145هـ/1732م وسنة 1156هـ/1743م لأغراض تجارية، فقد زر فيها كلا من تطوان، ومكناس، وفاس، والتقى عددا من الشيوخ، ذكرهم في رحلته، وحضر دروسهم، ومنهم من أجازه، كالشيخ امحمد البناني الفاسي، المتوفي سنة 1163، والذي كان يدرس بجامع زاوية أحمد بن ناصر [8]، والشيخ أحمد بن محمد الورززي[9] المتوفي سنة 1179هـ / 1766م، الذي كان يدرس بجامع لكاش بتطوان، وقد سمع منه ابن حمادوش التفسير ومختصر خليل وغيرهما، وناقشه في مسألة أفضلية الملائكة أو الرسل.

كما التقى ابن حمادوش في تطوان بأحمد السرايري مبعوثا من البناني المذكور، فكتب له إجازة ذكرها في رحلته، كما ذكر إجازتي البناني والورززي، إضافة إلى فهرس البناني، مما يبين أن رحلة ابن حمادوش إلى المغرب لم تكن تجارية فقط، بل كانت علمية بالدرجة الأولى، ذلك أنه كان حريصا على تدوين كل ما قرأه على الشيوخ، من عناوين الكتب والمؤلفات، وحتى بعض الفهارس، التي كان يذكرها بنصها الكامل، مثلما فعل مع فهرس السرايري، وفهرس الصباغ، هذا الأخير الذي كان تلميذا للشيخ زيتونة المذكور سالفا، وقد أورد ابن حمادوش

– خلافا لغيره ممن اختصر الفهرس – على النص الكامل له (حوالي 30 صفحة) ومع ذلك فقد أصابه البتر، لكون الرحلة في حد ذاتها مبتورة الآخر.

وقد كان ابن حمادوش حريصا على تعلم كل ما تعلق بميوله الشخصية، من ذلك أنه أخذ الطب على عبد الوهاب أَدَرَّاق، الذي «انتهت إليه رياسة الطب في زمنه، وبلغ في الصناعة مكانة عالية، وكانت الملوك تجله وتعظه، وكان إلى معرفته بالطب أيبا بارعا وويا متمكنا وقيها نظارا ... وألف في الطب لعلمي والطب الشري تآليف منها أرجوزة ذيل بها أرجوزة ابن سينا المعروفة في الطب، وأرجوز في حب الإفرنج، وهو الداء الزهري المعروف، وكتاب هز السمهري على من نفى عيب الجذري، وله تليق على كتاب النزهة لشيخ الأنطاكي، وغير ذلك، وتوفي رحمه الله عام 1159»[10].

وقد ذكر ابن حمادوش أنه أخذ شراب المصطكي على الحكيم المذكور، وقد وصف هذا الشراب بأنه من أفخر الأشربة [11]، كما تعلم في الجزائر الأعشاب، حيث يقول في هذا الصدد: «فالحمد لله على ذلك، فإن الأعشاب المقيدة في تأليفي كلها معروفة عندي، فاليوم، والحمد لله، أنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض»[12].

مما ذكر يتضح لنا اهتمام ابن حمادوش بالعلوم التجريبية، والتي مارسها وتعلمها بالفعل، وألف في بعضها تآليف، ربما تكون صغيرة الحجم، وربما تكون اختصارا لأعمال سابقة، ومع ذلك فإن ما قام به كان مجهودا محمودا، ذلك أنه تحدى الفقر، كما تحدى علماء عصره، الذين لم يخرجوا عن العلوم المتصلة الفقه والحديث والشروح والمتون، وكانوا يتوجسون خيفة من علوم النصارى، وقد ذكر الدارسون لابن حمادوش أنه عاش إلى أن بلغ التسعين أو يزيد، رغم أنهم لم يحددوا زمنا لذلك ولا مكانا، وقد ذكر في رحلته مجموعة من التآليف، التي لا نعرف منها إلا أسمائها، ذلك أنها مفقودة، باستثناء الجزء الثاني من رحلته، المسماة: "لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال"، ومعجمه "كشف الرموز في بيان الأعشاب".

مؤلفاته[13]:

معظم هذه المؤلفات مذكور في الرحلة باستثناء رقم 3، رقم 17.

1 – لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال[14]. طبعت سنة 1983 عن المؤسسة الوطنية للكتاب، بتحقيق الدكتور سعد الله، وأعد طبعها بعد ذلك عدة مرات، وهي تمثل الجزء الثاني فقط.

2 – الجوهر المكنون في بحر القانون. كتاب في الطب، والقانون هنا إشارة إلى كتاب ابن سينا. والكتاب مفقود كغيره، ولم يبق منه سوى الجزء الرابع المسمى "كشف الرموز".

3 – تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج.

4 – شرح منظومة ابن غرنوط، بغية الأديب من علم التكعيب (فتح المجيب في علم التكعيب)

5 – تأليف في صورة الكورة.

6 – تأليف في الروزنامة.

7 – تأليف في قوس الشمس.

8 – تأليف في الفلك. جمع في معلومات في التوايخ السبعة: العربي، والمسيحي، والإسكندري، والفارسي، والملكي، والقبطي، والعبري.

9 – تأليف في الرخامة الظلية.

10 – تأليف في الأوراد الصوفية.

11 – السانح في حواشي المتن والشارح على ألفية ابن مالك.

12 – الدرر على المختصر. وهو شرح على مختصر محمد بن يوسف السنوسي [15] في المنطق، وقد صححه على شيخه الورززي، الذي شهد له بذلك رفقة عدد من العلماء في مدينة الجزائر، وهم أحمد بن عمار، وعبد الرحمن المازوني، وأبو القاسم بن يوسف الحسني، وعبد الملك البرنوصي السليماني، وكل ذلك مذكور في الرحلة (ص: 258 – 263).

13 – تأليف في الاسطرلاب والربع المقنطر.

14 – تأليف في علم البلوط (معرفة الطرق البحرية).

15 – تأليف في البونبة. ضمهإلى ما تعلم ن عبد الرحمن الفاسي.

16 – مباحث الذكرى في شرح العقيدة الكبرى لمحمد بن يوسف السنوسي.

17 – تأليف في الطاعون.

18 – ديوان شعر: على الرغم من أن النماذج الشعرية المذكورة في "لسان المقال" لا تدل على تمكن صاحبها، ذلك أنها مكسورة عروضيا في أحيان ونحويا في أحيان أخرى، فإن ابن حمادوش، قد ذكر أن له ديوان شعر بناه على الغزل والنسيب والمراثي ومدح المصطفى – صلى الله عليه وسلم –، وهو مفقود كسابقيه.

ملاحظاته العلمية:

ارتأينا في هذا المقام الحديث عن تأثر ابن حمادوش بالعلوم العقلية، وممارستها دراسة وتجربة ومناقشة، وذلك انطلاقا من بعض الأمثلة المبثوثة في كتابيه المطبوعين: لسان المقال (وهو رحلته المغربية)، وكشف الرموز (وهو معجم الأعشاب الذي سنخصص له حيزا في هذا المقال)، فقد ذكر هو نفسه بعض الملاحظات الدالة على ما ذكرنا، فقد كان يسجل كل ما تقع عليه عينه، سواء في تنقلاته بين تطوان ومكناس وفاس، أو عبر الممارسة الفعلية والتجربة الشخصية، فضلا عن مطالعته الكتب المتعلقة بهذا النوع من العلوم ، «فقد درس القلصادي وشرح السنوسي على الحباك، والقانون والنجاح لابن سينا، وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا، ومقالات إقليدس، وكتاب تاريخ الدول للملطي، في أخبار العلماء والأطباء، وقد نقل من هذا الكتاب في الرحلة، وأعجب بصاحبه، ثم كتاب روضة الأزهار للجادري وشروحها، وكتاب السطي على ذوات الأسماء والمنفصلات، وطالع تأليفا في علم البونبة لعبد الرحمن الفاسي، وكتاب الطلاسم لابن البناء»[16]

فقد ذكر بعض الملاحظات، التي تدل على استعداده العلمي، ورغبته في نقل ما لاحظه، وجعل بعضا منه في خانة الغرائب، إما لأنه غير مألوف لديه، أو لأن أهل تلك المنطقة يختلفون في عاداتهم عن عادات الجزائريين، من ذلك مثلا أنه لاحظ سكان المناطق الموجودة قرب مرج من المروج بين تطوان ومكناس يحصدون في شهر أبريل، ونحن لا تهمنا المعلومة بقدر ما يهمنا انتباه ابن حمادوش لها، لدرجة أنه سجلها في رحلته، التي تشبه اليوميات أو المذكرات، ذلك أنه كان حريصا على الزمان أكثر من حرصه على الأحداث والمكان، فتجده يذكر اليوم، وما يوافقه من التاريخ الهجري والميلادي، يقول: «من غريب ما رأيت في هذا الطريق قربَ المرج الطويل، وجدتهم يحصدون الشعير في خامس أبريل، وفي هذا المرج السمك تسعة بوري مقلو في ودكة بموزونة»[17]

ومن الملاحظات الهامة التي سجلها في نفس المقام، ما رواه عن بعض الطيور، وكيفية بناء أعشاشها فوق الماء، مما يدل على اهتمام ابن حمادوش بكل ما يتصل بحياة الحيوانات والنباتات، والذي يظهر جليا في كتابه "كشف الرموز"، وهذه عبارته: «ومن غريب ما رأيت أني رأيت غرتين[18]، كل واحدة في أفحصها فوق الماء، تحضن بيضها، فلما بلغت المبيت، شهد أهل الحي كلهم، كبيرهم وصغيرهم، أن الغر وبو غطاس وطيور [كذا] آخر لا يلدون إلا فوق الماء في الموضع الذي يكون عليه كقطعة حسير من الكلأ، ثم يبنون به

أفحوصهم، ويبيضون ويفرخون، ولا يمس بيضهم الماء، وإن مسه الماء فسد، فإنها تبني بناء صحيحا، وأتَونا ببيض الغر، عظمه كبيض الدجاج، ولونه كلون بيض الحجل، إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل، وفيه نقط سود»[19].

كما أنه استغرب من أن السكان في هذا المكان، لازالوا يعتمدون على بعض النباتات في بناء القوارب، التي يستعملونها للصيد، أو للعبور من ناحية إلى أخرى من المرج، فالقوارب تصنع من سيقان البردي، «ومن غرائب ما رأيت أن في هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير والبيض، ويتعدون عليها من ناحية إلى الأخر [كذا]، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره، وهي من حزم البردي: يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلونها وسطا، ويعقدون حزمتين يجعلون من كل ناحية واحة عالية يمينا وشمالا، ووسطها منخفض، ويحملون ذلك بالربط من مقدمها، ويشدون ربط الكل ويركب فيها، ويمسك في يده عودا طويلا يكت به ولا يقذف»[20]. فابن حمادوش هنا فصل في كيفية صنع القوارب من البردي (وضع رسما تخطيطيا)، وما يهمنا هنا هو هذا التفصيل الذي يدل على الملاحظة العلمية، وليس في صنع القوارب من نبات البردي[21].

كما سجل ملاحظة أخرى متعلقة بنوع من أنواع الأشجار، كدليل آخر على أن رحلته كانت علمية بالأساس، ولم تكن لمجرد بيع سلعته، فها هو يصف لنا شجر الدلم بقوله: «وهو شجر يطول جدا، وورقه أكبر من ورق الدردار، وصفته بين ورق البلوط وورق الدردار، وله ثمرتان، إحداهم عفص كبير أكبر من العفص التركي، والأخرى بلوط حلو يؤكل، سبحان من هو على كل شيء قدير» [22]. فهو هنا يعقد مقارنة بين أوراق الأشجار، إضافة إلى ذكر حتى أصناف الثمار، وأحجامها، وكل ذلك نابع من الملاحظة والتجربة الشخصية.

وما قيل بأن الطيور والنباتات والأشجار، ينسحب على الحيوانات التي لقيت هي الأخرى انتباه ابن حمادوش؛ فو يسوق لنا ما لفت انتباهه، عندما كان برفقة عدد من الحمارين، حيث يقول: «فبتنا في دار أقبع في بستان تين قريب من الدشرة، وكنا اشترينا كبشا فطبخه الحمارون، وأكلنا وحمدنا الله. وبقي هناك فضلاته، ففي نحو مضى من الليل ربعه جاءت هرة تأكل مما هناك فرآها بعض الحمارين، وكانت جماعة قليلة، فرماها بمكحلة، فأرادها [فأرداها] بحبتها وأخذها وذبحها وسلخها، فكانت كلها شحما من شدة السمن وأمعاءها كأمعاء بني آدم واحد. وليست هي وحشية، وإنما هي أنسية في الغالب، فطبخوها وأكلوها، ونحن ننظر»[23]

تجاربه العلمية:

أما فما يخص التجارب التي أجراها ابن حمادوش، فنجدها مبثوثة هنا وهناك، سواء في رحلته أو في معجمه، وهي تجارب تنم عن استعداد ورغبة في التعلم والمعرفة بالمعاينة، وعدم الاكتفاء بالمطالعة، ذلك أنه لا يكاد يذكر تأليفا من تأليفاته المذكورة، إلا بعد قيامه بتجربة تتعلق به، كرسم خارطة، أو تركيب أشياء، أو رمي قنبلة، فهو يحاول أن يجرب كل ما تلقاه عن شيوخه، وسنضرب بعض الأمثلة، من ذلك مثلا، مداواة نفسه بالكينكينة، بعدما أصابته الحمى: «ثم منعني المرض، كانت أصابتني حمى شديدة، فلم أستطع القراءة، حتى ألهمني الله أن أشتري ثلاثة أثمان من الكين كينه، فاشتريتها بستة موزونات. فلما أخذتني واشتد بي بردها ضحاء يوم السبت، سابع ربيع الأولى، دققت الثمن الأول وشربته في فنجال [كذا] قهوة مع البن، فلما استقر في بطني أمسكت الأعظاء [كذا] كلها عن الاختلاج إلا عرقا واحدا في يد [كذا] اليمنى بقي يختلج اختلاجا يسير [كذا]. فلما شربت الثمن الثاني انقطع من كل عضو، ثم شربت الثمن الثالث فلم يبق بي ألم منها»[24].

وفي "كشف الرموز" أورد ابن حمادوش ذكر الكينكينه، والتي تسمى "سليخة"، ففي هذه المادة يذكر التجربة السابقة، حيث يقول: «هي قريبة من الدارصيني، وهي قشر شجرة كنكينة، وهي الكنكينة، حار يابس في الثانية، وهي أصناف تحد البصر اكتحالا بها، وتدر البول، وتقوي الأعضاء والمعدة والكبد الباردة، وتدر الطمث، وإذا شربها صاحب الحمى النافض وهي الباردة مع السخونة في حال أخذها بردتها في الحين، وكيفية ذلك أن يدق درهم، فإذا ابتدأته الحمى شربه بالقهوة، ثم بعد ساعة يشرب درهما كذلك، وبعد ساعة أخرى يشرب الثالث، فإنها تنقطع من وقتها بإذن الله، وقد جربتها مرارا، ولا تعرف عندنا بالسليخة، بل كنكينة بدلها دارصيني وشربتها درهم»[25]، فالمؤلف هنا يصف الدواء بناء على تجربة شخصية قان بها مرات عديدة.

كما أنه يروي بشيء من الفخر، تركيبه لمعجون، أطلق عليه اسم معجون الصلاح، إضافة إلى تحضيره لشراب المصطكي، وفي ذلك يقول: «وفي يوم الخميس عشرين من جمادى الثانية، موافق تاسع عشر يوليه، ركبت معجون [كذا] على منوال معجون الفلاسفة، لكن لم أسبق به، وسميته معجون الصلاح ومعجون الواحد، لأن عدد وزنه يجمعها واحد. وفي سابع وعشرين طبخت شراب المصطكي، وهو من أفخر الأشربة، أخذته عن الشيخ الحاج عبد الوهاب أدرّاق، أخذه عن أشياخه، عن الشيخ محمد السنوسي في شرح حديث "المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وأصل كل داء البرده" المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا الشراب يقوم في منافعه مقام الخمر»[26].

كما أنه يصف لنا اهتمامه بعلوم أخرى غير الطب، فها هو ذا يحاول عمل خارطة تتعلق برياح البحر، ويذكر أن هذا الأمر في غاية البساطة، وما يهمنا هنا هو تعدد مداركه العلمية، بحيث لم تقتصر تجاربه على مجال معين دون غيره، يقول: «وفي يوم الإثنين ابتدأت عمل كارطة رياح البحر، وهي صنعة هندسية سهلة المأخذ: تدور دائرة بقناص بلا حبر، ثم تخط من كل ناحية من نواحيها الأربع خطا أسود، تصير الدائرة خطوطا مربعة، ثم تقسم الدائرة على اثنين وثلاثين قسما متساوية، وتخط خطوطها بعد أن تجعل مركزها دائرة ومركز كل قسم كذلك، وتخط من كل إلى الأخرى خطا، تكون»[27]

ومن تجاربه العلمية المنبثقة عن الملاحظة الشخصية، تلك التجربة الخاصة بصنع مجوف من الزجاج، قصد معرفة الفرق بين أنواع المياه، ووومعرفة الأثقل من الأخف، حيث خلص إلى أن ماء البحر يعتبر من أخف المياه، مقارنة بغيره «وماء البحر هو أخف الأمياه يصل إلى منتهى المجوف؛ وتلك النقط التي أسفله مثلها فيه من حب الرصاص الرقيق. فإذا كان الماء أثقل منه غرق في المجوف بقدر ثقله، إما بدرجة أو درجتين أو أكثر، فماء الحامة عندنا وماء تالاملي، أسماء مائين، أعدل الأمياه عندنا بلغ إلى السادسة، فهو أثقل من ماء البحر بستة أدراج، وماء المطر وبعض الآثار أثقل منه بدرجة وأثقل من ماء البحر بسبعة أدراج»[28]

كما أن لابن حمادوش اهتمام بعلم البونبة (القنبلة)، وكيفية رميها، وقد ذكرنا أن له تأليفا في ذلك، وقد أورد في رحلته كيف أنه تعلم رمي القنبلة، مرة رفقة العلج حسن، وكان ذلك قرب باب الجزيرة، ومرة بصحبة أسط محمد ابن البومباجي، قرب باب الواد وكلاهما بمدينة الجزائر، وهو دقيق في وصفه لكل ما يتعلق بذلك من أوزان وأحجام وأطوال، ويبدو أنه قد قام بالتجربتين المذكورتين، انطلاقا من الدروس النظرية التي كان قد قيدها عن عبد الرحمن الفاسي، ففي تجربته الأولى يقول: «إلى يوم الإثنين آخر يوم منه خرجنا لباب الجزير (يقصد باب الجزيرة)، رمى العلج حسن بونبة واحدة ضحى، ارتفاعها ثلاثة وأربعون، وعمَّرَ [ملأ] المهراز بأربعة أرطال بارود فانشق المهراز، ولم يعد ولم يصب الغرض، وتعلمت عيانا ما كنت قيدت عن سيدي عبد الرحمن الفاسي» [29]. وفي الثانية يقول:«إلى يوم السبت حادي عشر ربيع الأول الموافق لثاني وعشرين مارس، خرجت لباب الواد مع أسط محمد ابن المبوثباجي [كذا وهي البونباجي] بمهراس [بالسين] صغير لنتعلم رمي البونبة، فتممت ما بقي لي، والحمد لله، وأخذت علم البونبة بارتفاعها وتعميرها ورميها وعجن بارودها، فأنا من علمائها، والحمد لله»[30].

مما سبق ندرك أن ابن حمادوش كان ذا ميول علمية متعددة، حيث لم تقتصر ملاحظاته وتجاربه على تعلم الأعشاب ومنافعها، بل تعدت ذلك إلى مختلف العلوم العقلية، من فلك واسطرلاب وحساب وملاحة، وما إلى ذلك، ورغم أن معظم مؤلفاته في حكم المفقود فإن في رحلته ومعجمه الطبي ما يشير إلى الاهتمام المذكور، وسنركز فيما يلي على الاهتمام الطبي لابن حمادوش، انطلاقا مما ألفه في هذا المجال، ونقصد بذلك رسالته المعروفة بـ "تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج"، والتي ألفها في مدينة رشيد بمصر سنة 1161هـ، أي بعد سفره من الجزائر بقليل[31]، ومعجم كشف الرموز في بيان الأعشاب هذا الأخير الذي طبع عدة مرات، وهو عبارة عن معجم في الأعشاب ألفه ابن حمادوش بناء على مطالعاته في كتب الأقدمين، إضافة إلى التجربة الشخصية.

تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج

أشار إلى هذا المؤلف المستشرق الفرنسي لوسيان ليكليرك (Lucien LECLERC)، سواء في الجزء الثاني من كتابه: تاريخ الطب العربي[32]، أو في ترجمته لكتاب كشف الرموز[33]، حيث قال بأنه في 19 ورقة، وهي النسخة التي استفاد منها كل من تحدث عن ابن حمادوش (كولان، أحمد بن مراد التركي، سعد الله)، أما موضعها فهو «وظائف الأعضاء التناسلية، والاضطرابات التي تصيبها، وكيفية علاجها والمحافظة عليها في حالة سليمة، وهذه الاضطرابات نوعان نوع غير عادي أو خارج عن قدرة الإنسان، ونوع عادي مثل تعكر أو توعك القلب والمخ والكبد، ويصف ابن حمادوش العلاج للنوع الأول، فيذهب إلى النصح باستعمال الوسائل التقليدية مل التمائم والرقي، كما يصف علاج النوع الثاني، وطريقة رده إلى حالته العادية التي تؤدي إلى تعديل الأمزجة المصابة. وهو يصف لذلك أدوية بسيطة ومركبة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. كما أنه يذكر الأدوية أو العناصر التي تضعف الأعضاء التناسلية، وتلك التي تهيج اللذة لكلا الجنسين»[34].

فكتاب "تعديل المزاج" عبارة عن رسالة ذات حجم صغير، تتحدث عن الاضطرابات التي تصيب المزاج البشري، وقد وصف ابن حمادوش حالتين تتعلقان أساسا بعمل الأعضاء التناسلية، كما ذكر العلاج المناسب لكل حالة من الحالتين المذكورتين، «وقد ذكر ابن حمادوش المصادر التي استقى منها المعلومات لموضوعه. فبالإضافة إلى التجربة الشخصية عاد إلى كتابات العياشي، وأبيقرط، وغاليان، وابن سينا، وحنين ابن إسحاق، وابن رشد، والدميري، والقزويني، وداود الأنطاكي، والجاحظ، والعطار، والبرزلي، والشاذلي، والبسكري. وقد اعتمد في هذه الرسالة – خلافا لما قام به في (كشف الرموز) – على الأحاديث النبوية. كما أنه أوصى باستعمال بعض الأدوية مثل الكينة ... وقد لاحظ ليكليرك الذي نوه بعقلانية ابن حمادوش في (كشف الرموز) اعتماده على الخرافة في (تعديل المزاج) مثل نصحه باستعمال التمائم والرقي»[35].

رغم ذلك فهذه الرسالة هامة في موضوعها، لأنها وليدة التجربة الشخصية، ومدعمة بآراء علماء بارزين، وهي بذلك خلاصة تلك الآراء، مما يدلل على سعة اطلاع صاحبها، وإلمامه بالمعارف المتعلقة بموضوعه.

وفي كشف الرموز الآتي ذكره بعض المواد، التي يتحدث فيها ابن حمادوش عن الباءة، وكيفية معالجتها وتقويتها، مثال ذلك مادة "بصل"، التي يقول عنها: «معروف حار يابس في الثالثة، يزيد في المني إذا طبخ مع لحم الضأن الفتي أو الدجاج أعان الباءة» [36]. ومادة "خولنجان" حيث يقول: «يجلو الأسنان، ويطيب النكهة، ويعين على الهضم، وينفع من القولنج ورياح الكلا، ويقوي الباءة، ولو بالاستياك به في الفم» [37]. ويقول في مادة "بقلة حمقاء":«تنفع المواد الصفروية أكلا وضمادا، وتضعف شهوة الجماع والطعام» [38]. وفي مادة "بط": «يزيد في الباءة، ويزيد في ماء الظهر، وشحمه عجيب في ترطيب الأورام الصلبة، ويصرف بردها»[39]، وفي مادة "طلع": «هو أول من حمل النحلة، يزيد في الباءة».[40] وغير ذلك من المواد التي وصل عددها إلى خمسين مادة تتصل بالموضوع المذكور.

كشف الرموز

كشف الرموز عبارة عن معجم في الأعشاب والعقاقير والحيوانات والمعادن، مع ذكر منافعها الطبية، فهو إذن معجم طبي سار فيه ابن حمادوش على نمط المعاجم القديمة كالجامع لمفردات الأغذية والأدوية لابن البيطار، وحديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار للوزير الغساني، وغيرهما، لكن ما يلفت النظر في هذا المعجم أنه غير مذكور بهذا الاسم في الرحلة، وهو ما يعزز كونه عبارة عن الجزء الرابع من "الجوهر المكنون في بحر القانون"، «ولعل حرص الناس على التداوي بالأعشاب هو الذي جعل بعض النساخ يفصلون الكتاب الرابع عن بقية (الجوهر المكنون)، الذي لا يهم في بقيته إلا الخاصة. فكثر تداول الكتاب الرابع، ونسي أصله، وهو (الجوهر المكنون). ولذلك تعددت نسخ الكتاب الرابع (أي كشف الرموز) إذ نجد منها في الجزائر، وفي المغرب الأقصى، وفي باريس، وهكذا، بينما لا نعرف شيئا عن (الجوهر المكنون)، إلا ما جاء عنه في الجزء الثاني من (لسان المقال)»[41].

والدليل الذي رجح به الباحث رأيه السابق، أن ابن حمادوش ذكر في معرض حديثه عن كتابه الجوهر المكنون، أنه قسمه إلى أربعة أجزاء (أقسام)، وجعل القسم الرابع في حل الألفاظ وتعريبها، وقد ابتدأ تأليف (الجوهر المكنون) في فاتح ذي الحجة 1157هـ الموافق لأواخر ديسمبر 1744 م، وهذ نص ابن حمادوش،ارتأينا نقله كاملا، ذلك أن هذا الكتاب مفقود، إلا ما ورد عنه في الرحلة:

«وفي يوم الإثنين أول يوم من ذي الحجة ابتدأت تأليف الجوهر المكنون من بحر القانون، تأليف حسن في الطب، وأوله:

الحمد لله العفو الرؤوف، الشكور الحليم العطوف، الباعث الرسل الكرام رحمة للأنام، الجاعل من الماء ترياق الحياة، من الحيات، ومعدل ما انحرف من المزاج بالعلاج، والصلاة والسلام على من بسقت به المفردات، وأينعت به المركبات، وبعد، فهذا جوهر مكنون من بحر القانون، يتوش حبه الأصاغر، ولا تمجه الأكابر، والله المستعان، وعليه التكلان. وقد جعلته مرتبا على أربعة كتب:

الكتاب الأول: في السموم، وذوات السمو [كذا] وعلاجاتها.

الكتاب الثاني: في الترياقات وما يجري مجراها، إن وجد من الباذزهرات، وبعض المعاجين الذي يضطر إليه المرء.

الكتاب الثالث: في الأمراض، مرتبا على جدول حُنين ابن إسحاق [42] المتطبب، وهو كتاب جليل، إن تم، فيه الأسباب والعلامات والعلاجات، وهو إلى الآن لم يتم.

ونويت أن أجعل الكتاب الرابع في حل ألفاظ المفردات وتعريبها ما أمكن، إن شاء الله. وبالله تعالى التوفيق »[43].

انطلاقا من هذه المقدمة يتضح أن الكتاب الرابع من الجوهر المكنون، يشتمل على تعريب الألفاظ، وهو ما تم في كتاب كشف الرموز، الذي يتضمن تعريب الأعشاب والعقاقير، والمعادن، وذكر خصائصها، ومنافعها الطبية، والكتاب عبارة عن معجم مرتب ألفبائيا، وهو مطبوع ومتداول، بالعربية والفرنسية، فقد ترجمه لوسيان ليكليرك سنة 1874، أي قبل كتابه، "تاريخ الطب العربي" بسنتين، كما ترجمه ودرس مضمونه غابريال كولن، في رسالته للدكتوراه من جامعة الجزائر، عام 1905، بعنوان، (; Abderrezzaq el-jezairi un Médecin Arabe du XII Siècle de l'Algerie)، كما نشره أحمد بن مراد التركي (رودوسي) بالعربية (1321هـ /1903م)، بالمطبعة الثعالبية الجزائر، وأعيد طبعه في دار الكتب العلمية، بيروت، عام 1996، مما يعني أن كشف الرموز كان متداولا ومعروفا، وذلك لتعدد نسخه – كما ذكرنا – ولوجود ترجمتين له بالفرنسية،

يبقى فقط الإشارة إلى أن طبعة رودوسي جاء العنوان كما يلي: كشف الرموز في بيان الأعشاب، وفي طبعة العلمية جاء بعنوان: كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب، وعلى العموم فالطبعتان تتشابهان في عدد المواد وترتيبها. بيد أن هذا المعجم لم يكن خاصا بالنباتات – كما ذكرنا- «ولذلك فإنه من الخطإ إضافة عبارة "في بيان الأعشاب" التي ظهرت في الطبعة العربية، فالكتاب يتناول غير النباتات أيضا. ولم يذكر المؤلف حرفي الغين والضاد في معجمه، ربما لعدم توفر أسماء الأدوية ونحوها في هذين الحرفين. وقد ذكر فيه أسماء بتعريفات ومصطلحات الأطباء السابقين له، وكان يكثر من تأصيل كل اسم وما يعرفه عنه، فيقول "عندنا" كذا، وفي مصر يسمى كذا، وفي سورية كيت وكيت. وجاء فيه عدد من أسماء الأدوية وغيرها، التي وردت على الجزائر من أوربا في العهد العثماني أيضا»[44].

تجدر الإشارة إلى أن ابن حمادوش قد اعتمد في كتابه كشف الرموز في بيان الأعشاب، على مصادر طبية مختلفة، كالتذكرة لداود الأنطاكي، والجامع لابن البيطار، فضلا عن القانون في الطب لابن سينا، ولعل اعتماده الأول كان على كتاب ابن سينا، وهو ما يظهر جليا في العنوان العام للكتاب "الجوهر المكنون من بحر القانون"، والذي يؤكد أنه قد شرح فيه بعض أبواب القانون، كما يبرز لنا ما ذكرناه من أن الكشف هو القسم الرابع والأخير من الجوهر المكنون، وهو ما يعززه العنوان المذكور في طبعة رودوسي: "الكتاب الرابع في الأدوية المفردة وشرح أسمائها"، «ولكن الناظر في "الكشف" يلاحظ أن ابن حمادوش قد تجاوز فيه كتاب "القانون" إلى المصادر الطبية والصيدلية العربية الإسلامية التي تلته، ولم يتقيد بكتاب "القانون" إلا قليلا؛ إذ لم يعتمده اعتمادا يكاد يكون كليا إلا في المقدمة، التي تحدث فيها عن "أفعال قوى الأدوية"، اعتمادا على ما ذكره ابن سينا في المقالة الرابعة من الباب الثاني من "القانون"»[45].

وقد نقل ابن حمادوش المقالة المذكورة بتمامها من كتاب "القانون"، وكأنه جعلها كالمقدمه لكتابه، الذي أراده خاصا بالأدوية المفردة، وشرح أسمائها، يقول: «الحمد لله، قال في الجملة الأولى من الكتاب الثاني من القانون: يجب أن نقدم ما لابد منه ثم قال، المقالة الرابعة: في تعرف أفعال قوى الأدوية المفردة، نقول؛ إن للأدوية أفعالا كلية، وأفعالا جزئية، وأقعالا تشبه الكلية، والأفعال الكلية هي مثل التسخين والتبريد والجذب والدفع، والإدمال والتقريح، وما أشبه هذه، والأفعال الجزئية مثل المنفعة في السرطان، والمنفعة في البواسير، والمنفعة في اليرقان، وما أشبه ذلك، والأفعال التي تشبه الكلية، فمثل الإسهال والإدرار، وما أشبه ذلك ...»[46].

وهذا الكلام لا يعتبر مقدمة لكتاب مستقل، مما يعني أنه جزء من الجوهر المكنون، سيما وأنه ينقل مقالة كاملة من القانون، وهي المقالة الرابعة من الكتاب الثاني، والذي خصصه ابن سينا للأدوية المفردة، «ولم يهتد إلى ذلك ليكليرك، الذي ترجم (كشف الرموز) إلى الرنسية، ولا كولان، الذي درس الكتاب، وحصل به على الدكتوراه في الطب، ولا ناشره بالعربية السيد أحمد بن مراد التركي المعروف برودوسي، غير أن كولان ورودوسي تفطنا إلى أن الكتاب غير مستقل بذاته، نظرا لبدايته التي لا تتماشى مع ما اعتاده المؤلفون المسلمون من ذكر الديباجة المتضمنة للغرض من التأليف، واسم الكتاب، وخطته، ونحو ذلك»[47].

وبعد أن نقل المقالة السابقة، ينتقل ابن حمادوش إلى التقديم لمعجمه الطبي بكلام يتعلق بالأدوية، ومعرفتها، وكيفية التعامل معها، مع ذكر الظروف المناسبة لذلك، سواء كان هذا الدواء عشبا، أو حيوانا أو معدنا، أو غير ذلك، ولم يطل هذه المرة، إذ لم يتعد تقديمه صفحة واحدة، بعنوان: "اتخاذ الأدوية"، منها قوله:«إذا فتح الله عليك بمعرفة الأدوية؛ إما بوقوف عليها، أو بكتاب فتح الله عليك وحققتها، فإذا كانت في الأماكن المعتدلة، فيكون أخذها في وسط الربيع، ولا تجمعها إلا بعد استحكام نضجها في مكانها، وكمال إدراكها، فإن الكاملة الإدراك في مكانها مفيدة، والفجاجة قليلة الإفادة، وفي البلاد الحارة في آخر الشتاء، وفي البلاد الباردة في أول الصيف، والإقليم الرابع الذي في الجزائر هو المعتدل؛ وإذا أخذت شيئا من المعادن، فاختر منه ما كان سالما مما يخالطه من تراب أو مما يشابهه وليس هو؛ وإذا أردت إعداد شيء من الحيوان كسقنقور وسمكة صيد ثم تشقه، وترمي ما في بطنه، وتملحه بيسير ملح، وتنظمه في خيط، وتعلقه في الهواء حتى ينشف ...»[48].

بعد ذلك يشرع ابن حمادوش في سرد مواد معجمه وفقا لحروف الهجاء، فللبحث عن مادة تبدأ بالألف نجدها في حرف الألف، وهكذا، والمواد تختلف من حيث العدد في كل حرف من الحروف الثمان والعشرين، بل إن حرف الغين غير موجود، نظرا لعدم وجود أي مادة تبدأ به، وعلى العموم ففي (كشف الرموز) 987 مادة، وهو العدد المتفق عليه من طرف الدكتور سعد الله، وإبراهيم بن مراد التونسي، مع شيئ من التفصيل لدى الثاني، حيث يقول: «يحتوي كتاب "الكشف" 990 مادة، منها ثلاث مواد انفردت بها الترجمة الفرنسية، ووردت فيها غفلا من أي تعريف، أما بقية المواد فعلى صنفين: الأول يمثل المواد الرئيسية الطبية العلاجية في الكتاب، وهي الغالبة، إذ أن عددها 575 مادة، ونسبتها 58.08 % ، والصنف الثاني تفسيري محض، وعدد مواده 412 مادة بنسبة 41.61 %، وقد اتبع المؤلف في وضع مواده الرئيسية نفس الطريقة التي كان يتّبعها مِن قبله الأطباءُ والصيادلة العرب والمسلمون – وخاصة منهم داود الأنطاكي في التذكرة – في وضع معاجمهم»[49].

فالمواد الثلاث التي انفردت بها الترجمة الفرنسية هي: كرنب بحري (Chou Marin)[50]، الفقرة 455، قرمز (Kermés)[51]، الفقرة 766، رمث (Caroxilon)[52]، الفقرة 800. حيث ذكر ليكليرك أنها وردت دون أي تعريف، غير أنه ذكر أن الرمث وجود بكثرة في جنوب الجزائر، أما المواد الثلاث التي انفردت بها النسخة العربية، فهي: تهوع، ترهل، تبهج الوجه، وقد وردت هذه المواد متتالية، ودون تفصيل؛ مما يعني أنها أقحمت إقحاما من الناسخ، وهي في الأصل أمراض، وليست أدوية، وجاءت معرفة كما يلي:

(تهوع) الحركة إلى القيء – (ترهل) هو الاسترخاء – (تهج الوجه) أي انتفخ.[53]

وكما ذكرنا سابقا، فإن ابن حمادوش في كشف الرموز ابتعد عن الخرافة، وكان أكثر عقلانية، سواء في المواد التي نقلها عمن سبقه، أو في تلك التي جربها بنفسه، لكن هناك مادتان نشم فيما شيئا من ذلك، وهما: جلوز، وكبد الرخم، فهو يقول:

(جلوز) هو البندق، حار يابس معتدل، بطيء الهضم، يولد المرار ويهيج القيء والصداع، ويزيد في الجماع والباءة، وينفع من السموم القتالة، وفيه خاصية ترياقية، وعجيب فعله في الشفاء فيه أنك إذا مضغته مضغا، أو سحقته وطرحته في السراج على الفتيلة، وأوقدته بالزيت، يقع النوم الثقيل على أهل المجلس، ولا يبقى فيهم منتبه أبدا.[54]

(كبد): من أي حيوان كان، طائرا أو غيره، حارة رطبة في الأولى، وكبد الرخمة إذا حرق وسحق وشرب مع الخل ثلاثة أيام أخرج الحبس من[55] صاحبه، وبرئ منه.

ففي المادتين المذكورتين شيء من الخرافة، ويظهر ذلك من خلال قوله في المادة الأولى "وفيه خاصية ترياقية"، ليردفها بعبارة: "يقع النوم الثقيل على أهل المجلس ..."، لأن المفروض في الدواء أن يساعد على الشفاء، لا على تحضيره كتميمة أو ترياق، وفي المادة الثانية، حديث عن كيفية إخراج الجن (الحبس) من الإنسان، وذلك من خلال حرق وسحق وشرب كبد الرخمة (نوع من الطيور) مع الخل، لمدة ثلاثة أيام، لكن هذا لا ينقص من أهمية الكشف، ذلك أن صاحبه ذو تجربة شخصية في ميدان الأعشاب، إضافة إلى مطالعاته لكتب السابقين، واقباسه منهم في أحيان كثيرة.

ومما يلاحظ على (كشف الرموز) حرص ابن حمادوش على تأصيل الأسماء والمصطلحات ما أمكن، فهو يذكر المادة، ثم يورد الأسماء التي تعرف بها، سواء في المغرب أو مصر أو الشام أو الحجاز، إضافة إلى الأسماء البربرية، ففي مادة (بوصيرا) مثلا يقول: «هو الجزرناق، هو مصلح الأنظار، فماء أصله يستعمله أطباء الشام مكان الماهيزاهر في أدوية المفاصل» [56]. وفي مادة (بورق): «هو النطرون، وهو من الملح، يؤتى به من إسكندرية أبيض، ومن طرابلس أبيض، وهذان يؤكلان» [57]، وفي مادة جزر بستاني يقول: «هو الزرودية، وفي المغرب خبازا، وفي تونس أسفنارية»[58]، وفي مادة جوز الزنج: «هو جوز الشرك، وفي المغرب يقولون له: الجوزة السحراوية، قال داود: أهل مصر يسمونه فلفل السودان، وفي الجزائر يسمونه: الجوزة الرقيقة»[59]، وفي مادة (إذخر): «وهو نبات بمكة، ولا ينبت في غير الحجاز فيما أعلم»[60]، ومن الأسماء البربرية: تيزيزويت (مادة "باذرنجويه")، تافرفرا – تاسوفالت (مادة "لبلابر") – تاتيلولا (مادة "فاشرا")

إضافة إلى ذكر الاسم الأعجمي (يونانيا كان أو غيره)، فمن الأسماء اليونانية (أرغاموني – أكلوقينون – أفثيوم – أسفاقس – أقليميا)، ومن الفارسية (برشياوشان – أسفيداج – أنجان – جلنجبين)، ومما يلاحظ أنه يذكر مصطلح "عجمي" أو "عند النصارى"، ويعني بهم الإسبان (مجرد احتمال ذلك أنه قال بأنه زار بلاد العجم، ولم يحدد من هم هؤلاء العجم)، لكنه يقول في مدة "بابونج": «ولذا تسميه النصارى وهم الإسبانول "منسلينية"؛ أي تفاحة»[61].ومن الأمثلة على ذلك قوله:

(بالوسانطو) هو عود الأنيب، لم يذكر في كتاب الأوائل لأنهم لم يعلموه... لكن النصارى وجدوه في الهند.[62]

(بسباسة) هو غليظ، أشبه شيء برائحة البسباس، ويسمى عند النصارى "صاصفراس"[63]

(جنطيانا) والنصارى يقولون: جنسيانا الراي، أما بالطليانية والأصح بالسبنيولية بشلشكة، وهي عروق مرة.[64]

(زيبق) ويسمى الزواق، وبالعجمية أرجان فيف؛ أي الفضة الحية[65].

(مغنيسيا): هي كالمرقشيثا عند النصارى[66].

وسنذكر هنا بعض الأمثلة لأسماء المواد التي ذكرها ابن حمادوش في الكشف، وذكر أسماءها التي تعرف بها عند المغاربة، مع الإشارة إلى ترجمتها الفرنسية، كما وردت لدى (ليكليرك)، مع الإشارة إلى رقم الفقرة عند هذا الأخير، وسنشير إلى طبعة الجزائر بـ: ط1،وإلى طبعة بيروت بـ: ط2:

المادة	تعرف لدى المغاربة	اسمها الأجنبي	فقرة	ط1	ط2
أقحوان	شجرة مريم	P.Matricaire	53	25	36
بسبايج	أشتوان	Dolypode	181	44	89
جزر بستاني	خبازا	Carote	201	51	108
جوز الزنج	الجوزة السحراوية	Unona	214	55	116
حب الفقد	حب الحراق	Grain de vitex	325	62	136
حندقوقا	حبه أزورد	Mélilot	335	63	141
دُبّا	القرع السلاوي	Courge	242	77	180
طين قيموليا	غاسول	Terre cimoline	395	113	282
لوف	أيون	Arum	503	143	365

وكما ذكرنا سابقا، فإن الكشف لا يحتوي على الأعشاب فقط، بل تضمن موادا أخرى كالمعادن، والتراب، والطين، وأجزاء من الحيوانات، وغيرها من امواد التي يسهل العثور عليها من خلال البحث، وسنكتفي هنا بالإشارة إلى بعض المواد التي تتضمن أسماء لحيوانات:

إوز: هو الوز، أكبر من البراك. ص25 (34).

بنات الشيح: هو شحمة الأرض. ص35 (64).

بط: هو البراك وهو من طيور الماء. ص42 (86).

جراد: حيوان معروف طيار. ص53 (114).

حباحب: بعضهم يسميه سراج الليل، وهو حيوان كالذباب الصغير. ص63 (139).

حلزون: منه بري وهو جغلال وأغلال والبيوش والبحري وهو البضلان. ص63 (140).

خفاش: هو الوطواط، وهو طائر الليل. ص 74 (170).

سلحفاة: واحدة سلحفات، وهو الفكرون منه بري وبحري. ص96 (231).

سلخ الحية: هو فسخها وهو ثوب الحنش. ص100 (243).

عصفور: هو البرطال وهو الزاوش. ص121 (303).

قنبرة: هو الطائر المعروف بالقوبع. ص131 (331).

مخ العظام: حار رطب وأنفعها مخ الأيل ثم العجل والثور والضأن ثم المعز. ص150 (382).

نمر: حيوان ملون الجلد، فوق الكلب حجما، وجهه كالأسد وجثته إلى طول، خفيف الحركة، شديد القوى، كثير الحياة. ص 163 (415).

نعام: طائر يقارب الرخ.163 (415).

وهناك مواد انفرد بها، ولا ندري هل ذكرها الأوائل بمسميات أخرى، أو أنه أخذها عن النصارى، ولنترك الجواب لابن حمادوش نفسه، في مادتي "بالوسانطو" و"صاصفراس":

بالوسانطو: هو عود الأنيب، لم يذكر في كتاب الأوائل لأنهم لم يعلموه، كذا قيل، وقيل ذكروه كلهم في حرف العين عود الصليب، لكن النصارى وجدوه في الهند، ومعناه عود مبارك، ورقه وشجره مثل لسان العصافير.[67]

صاصفراس: قال في غاية البيان هو بلغة التركمان ما معناه، إنه شجر شريف لم يذكر في كتب الأوائل؛ لأنهم لم يجدوه، ورائحته كرائحة السيباس، وأصله من الهند الجديد، ينبت فيها ... فقوله لم يذكره الأوائل لكونهم لم يعلموه أقول والله أعلم: إن الأوائل ذكروه وعلموه، إلا أن الأواخر جهلوه؛ لعدم فحصهم على الأمور، وأظنه في كتبهم البسباسة لأنها حارة يابسة في الثانية، وهو كذلك، ورائحته كرائحة البسباسة، وليس في العقاقير التي يسمونها البسباسة ما رائحته رائحة البسباس غيره[68].

كما ذكر أنه لا يعرف بعض المواد، بل سمع عنها فقط، كقوله:

زرنب: لا أعرفه لكن فيه قالت الأعرابية المس مس أرنب والريح ريح زرنب، وهو من أعشاب الحجاز، ذكر في حديث أم زرع[69]، حار يابس في الثالثة، بدله وزنه سليخة أو دارصيني، وشربته إلى درهمين[70].

زقوم: لا أعرفه، وشربته إلى أربعة قراريط بدله نفط.

والجدول التالي يبين المقادير التي اعتمدها ابن حمادوش في معجمه[71]:

القمحة	Grain	وحدة الوزن	0.0488 غرام
القراط	Carat	4 قمحات	0.1954 غرام
الدرهم	Drachme	16 قراط	3.1266 غرام
المثقال	Mitqal	1 درهم و نصف	4.6899 غرام
الوقية	Once	12 درهما	37.5192 غرام
الرطل	Livre	12 وقية	450.2304 غرام
الدانق	Daniq	سدس الدرهم	0.5211 غرام
الأسطار	Istar	6 دراهم ونصف	19.8018 غرام

الهوامش والإحالات

[1] - ترجمته في:

نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية بيروت، ط2،1980، ص365.

سعد الله، أبو القاسم، الطبيب الرحالة، ابن حمادوش الجزائري، عالم المعرفة، الجزائر،2011. وكذا في قسم الدراسة لرحلة لسان المقال. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1 بعنوان: عبد الرزاق ابن حمادوش ورحلته لسان المقال، وهو منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج2، م 50، أبريل، 1975.،وأبحاث وآراء، ج4، بعنوان: رسالة في الكرة الفلكية لابن حمادوش، وفي تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 425/2.

ابراهيم بن مراد، المصطلح الأعجمي، في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 227 – 270.

[2] – ابن حمادوش، عبد الرزاق، لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تح: سعد الله، عالم المعرفة الجزائر،2011، ص: 241.

[3] – ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص: 237.

[4] – المصدر نفسه، ص: 118.

[5] – المصدر نفسه، 216.

[6] – سعد الله أبو القاسم، الطبيب الرحالة، ابن حمادوش الجزائري، ص:29.

[7] – محمد بن عبد الله زيتونة الشريف المنستيري (1081 – 1138) (1670 – 1726) مفسر، فقيه، ناظم كفيف، كان يحفظ من سماع واحد، (ينظر: محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1982،. 437/2. والنيفر محمد، عنوان الأريب، دار الغرب الإسلاي، ط1، 1996، 485/1.)

[8] – هو صاحب الرحلة المشهورة برحلة الدرعي، حج سنة 1121هـ، وتوفي سنة 1129، ووالده محمد بن ناصر الدرعي المتوفي سنة 1085، هو صاحب الطريقة الناصرية، بوادي درعة،

[9] – أبو العباس الورزازي الدرع التطواني، محدث، فاسي الأصل، عرفه صاحب فهرس الفهارس بحبر تطوان وفخرها، زار الجزائر مرتين على الأقل، ترجمته في الأعلام: 243/1، والكتاني، فهرس الفهارس، ص 1111. داود محمد، مختصر تاريخ تطوان، المطبعة المهدية، تطوان، 1955.، ص: 290.

[10] – كنون، عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1/ 290.

[11] – ابن حمادوش، لسان المقال، ص: 121.

[12] – ابن حمادش، لسان المقال، ص: 164، والتأليف المذكور هو الجوهر المكنون في بحر القانون.

[13] – المؤلفات مأخوذة مما جاء في لسان المقال، إضافة إلى المراجع المذكورة في الإحالة رقم 1.

[14] – ذكرها ابن سودة المري، في دليل مؤرخ المغرب الأقصى، مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، بيروت، ط1، 1997، ص:248.

[15] – (832-895هـ) (1428-1490م) كبير علماء تلمسان وزهادها في عصره، عالم في التفسير والحديث وعلم التوحيد، صاحب العقائد الصغرى والوسطى والكبرى، (معجم أعلام الجزائر: 180، تعريف الخلف: 176/1، تاريخ الجزائر الثقافي: 95/1، وغيرها).

[16] – سعد الله، أبو القاسم، الطبيب الرحالة، ص: 29.

[17] – لسان المقال، ص:73.

[18] – الغر أو الغرّاء: طائر مائي متوسط الحجم يتميز بلونه الأسود أو الرمادي، وبوجود علامات مميزة على الجبهة، اسمه العلمي: Fulica وبالإنجليزية: coot. يقول ابن حمادوش: "والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء" (لسان المقال، ص:73.)

[19] – لسان المقال، ص:73.

[20] – لسان المقال، ص:74.

[21] – كانت القوارب الصغيرة تصنع من بوص البردي لدى المصريين القدماء (ينظر: هارت جورج، الحضارة المصرية القديمة، تر: هالة حسانين، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص38:.)، وقد وردت مادة بردي، في كشف الرموز، ط. الجزائر، ص: 40، وط. بيروت، ص: 78.

[22] – لسان المقال، ص: 99.

[23] – لسان المقال، ص: 99.

[24] – لسان المقال، ص:84.

[25] – ابن حمادوش، كشف الرموز في بيان الأعشاب، طبع على ذمة أحمد بن مراد التركي، ص:90، وفي طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب)، 1996، ص: 219.

[26] – لسان المقال، ص: 121. يقول ابن القيم الجوزية في "زاد المعاد" (96/4): أما الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس: "الحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء، وعودوا كل جسم ما اعتاد" فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعه إلى النبي ρ

[27] – لسان المقال، ص: 255.

[28] – لسان المقال، ص: 219.

[29] – لسان المقال، ص: 253.

[30] – لسان المقال، ص: 254.

[31] – ذكر سعد الله أنه استفاد من نسخة السيد لوسيان ليكليرك، صاحب كتاب تاريخ الطب العربي، باريس، 1876، ومترجم كشف الرموز إلى الفرنسية، باريس 1874، كما أن نسخة أخرى موجودة لدى المرحوم المهدي البوعبدلي، وهي في حجم صغير (11 أبريل 1973)، ينظر: سعد الله أبو القاسم، الطبيب الرحالة، ابن حمادوش الجزائري، ص: 85.

[32] – LECLERC Lucien, histoire de la médecine arabe ,ernest leroux, éditeur, Paris 1876, tome second, p : 309-310.

[33] – LUCLERC Lucien , KACHEF ER-ROUMOUZ (réélation des énigmes) ; ou traité de matière médicale arabe ; J.B. Bailière et Fils ; Ernest Lroux , éditeur ; PARIS , 1874. P : 380.

[34] – سعد الله، الطبيب الرحالة، ص: 85 عن: LUCLERC Lucien , KACHEF ER-ROUMOUZ (réélation des énigmes), p : 380.

[35] – المرجع السابق، ص: 86. عن: LUCLERC Lucien , KACHEF ER-ROUMOUZ, p; 380.,

[36] – ابن حمادوش، كشف الرموز، ط. الجزائر، ص: 41، ط. بيروت، ص: 82.

[37] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: 70 أو 71، ط. بيروت، ص: 162. وفي الترجمة، ص: 352-353. (فقرة 906).

[38] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: ، ط. بيروت، ص: 70، وفي الترجمة، ص: 60 (فقرة 139).

[39] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: 42، وط. بيروت، ص: 86، وفي الترجمة، ص: 75 (فقرة 175).

[40] – المصدر نفسه، ط الجزائر، ص: 114، وط. بيروت، ص: 285، وفي الترجمة، ص: 172 (فقرة 401).

[41] – سعد الله، الطبيب الرحالة، ص: 80.

[42] – حُنَين ابن إسحاق العِبَادي، أبو زيد (194 – 260 هـ / 810 – 873م)، طبيب مؤرخ مترجم، لخص كثيرا من كتب أبقراط وجالينوس، رحل رحلات كثير، عاصر تسعة من الخلفاء، ترجمته في: الأعلام، 287/2.

[43] – ابن حمادوش، لسان المقال، ص: 160 – 161.

[44] – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 432/2-433.

[45] – ابراهيم بن مراد، المصطلح الأعجمي، في كتب الطب والصيدلة العربية، 236/1.

[46] – ابن حمادوش، كشف الرموز، طبعة الجزائر، ص: 4، طبعة بيروت، ص: 3 – 4، مع ملاحظة ورود المقامة بدل المقالة (خطء مطبعي)، وقد وردت المقالة الرابعة من الكتاب الثاني بتمامها، في 9 صفحات من طبعة الجزائر، و6 صفحات في طبعة بيروت. والمقالة موجودة في كتاب، ابن سينا، أبو الحسن ابن علي، القانون في الطب، تح: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، ج326/1 -332.

[47] – سعد الله، الطبيب الرحالة، ص: 80.، تاريخ الجزائر الثقافي، 431/2 - 432.

[48] – ابن حمادوش، كشف الرموز، ط الجزائر، ص: 13، وط بيروت، ص: 9.

[49] – ابراهيم بن مراد، المصطلح الأعجمي، مرجع سابق، 239/1.

[50] – LUCLERC Lucien , KACHEF ER- , p 194. ROUMOUZ

[51] – المصدر نفسه، ص: 305.

[52] – المصدر نفسه:، ص: 315.

[53] – أشار إليها ابراهيم بن مراد، في كتابه المذكور سابقا، هامش صفحة، 239. أما ذكرها في كشف الرموز فقد ورد في: ص: 48، ط: الجزائر، وص: 102، ط بيروت.

[54] – ابن حمادوش، كشف الرموز، ط. الجزائر، ص: 51، ط. بيروت، ص: 108.

[55] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: 139. وط. بيروت، ط: 352.

[56] – ابن حمادوش، كشف الرموز، ط. الجزائر، ص: 45، وط. بيروت، ص: 93. وقد وردت هذه المادة مرتين، حيث ذكرت تحت رقم 167، وفيها جاء التعريف مختصرا، وغامضا، كما يلي: (بوصيرا) هو مصلح الأنظار، وهو أذن الدب، وترجمته (BOUILLON BLANC)، وهي نفس الترجمة في المادة المذكورة، ينظر، كشف الرموز، ط. الجزائر، ص: 41، وط. بيروت، ص: 81. وفي الترجمة الفرنسية (ليكليرك) ص: 71.(فقرة 167)، وهي مكتوبة (BOUSSIRA)، والثانية في ص: 81، فقرة (195)، وهي مكتوبة (Boûcira). ولا ندري هل هي مادة واحدة، أم هناك اختلاف. ينظر مادة أذن الدب (حرف الألف) المادة رقم: 76، (VERBASCUM).

[57] – كشف الرموز، ط. الجزائر، ص: 36.، ط. بيروت، ص: 68. وفي الترجمة، ص: 59. (فقرة 137).

[58] – ابن حمادوش، كشف الرموز، ط. الجزائر، ص: 51.، ط. بيروت، ص: 108. وفي الترجمة، ص: 84-82 (فقرة 201).

[59] – الكشف، ط. الجزائر، ص: 55، ط. بيروت، ص: 116. وفي الترجمة، ص: 91. (فقرة 214).

[60] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: 16، وط. بيروت، ص: 15 ، وفي الترجمة، ص: 15-16 (فقرة 9).

[61] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: 33، ط. بيروت، ص: 59، وفي الترجمة، ص: 51 (فقرة 123).

[62] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: 38، ط. بيروت، ص: 72، وفي الترجمة، ص: 63 (فقرة 151).

[63] – المصدر نفسه، ط الجزائر، ص: 35، ط. بيروت، ص: 64، وفي الترجمة، ص: 55 (فقرة 130).

[64] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: 56 – 57. وط. بيروت، ط: 121.

[65] – المصدر نفصه، ط. الجزائر، ص: 88، وط. بيروت، ص: 211، وفي الترجمة، ص: 126 (فقرة 287).

[66] – المصدر نفسه، ط. الجزائر، ص: 155، وط. بيروت، ص: 392. وفي الترجمة، ص: 227 (فقرة 543).

[67] – سبق ذكرها.

[68] – كشف الرموز، ط.الجزائر: 108 – 109، ط. بيروت، ص: 270 - 271.

[69] – ورد في صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة –رضي الله عنهم- باب في فضل عائشة – رضي الله عنها- عن عائشة أنها قالت: جلس إحدى عشرة امرأة، وتعاهدن ألا يكتمن من بار أزواج شيئا (الحديث) حيث قالت الثامنة: زوجي الريح ريح زرنب والمس مس أرنب. والزرنب نبات طيب الرائحة.

[70] – كشف الرموز ص: 212.

[71] – كولان غابريال، عبد الرزاق الجزائري، ص:43، وقد نقلها سعد الله أبو القاسم في: الطبيب الرحالة، ص: 84، وتاريخ الجزائر الثقافي،435/2.